

DOI: 10.54240/2318-015-001-010

المساعي الدبلوماسية لتخفيف الصراع بين إيالة الجزائر
والدولة السعدية بالمغرب الأقصى خلال القرن 16م. (دراسة أرشيفية)
Diplomatic efforts to ease the conflict between the regency of
Algeria and the Saadian state in Morocco During the 16th century
AD. (archive study)

صص 206-232

اسم ولقب المؤلف المرسل: سالم جوامع- Salem Djouama

الدرجة والعنوان المهني: دكتور- جامعة أبوبكر بلقايد- تلمسان- الجزائر.

البريد الإلكتروني: salemdjouama1492@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 2024/12/26.. تاريخ المراجعة: 2025/1/10.. تاريخ القبول: 2025/3/14

الملخص: تحاول هذه الدراسة البحث في المساعي الدبلوماسية؛ من مراسلاتٍ وسفارات، لتخفيف الصراع وإحلال السلام بين كل من إيالة الجزائر والدولة السعدية بالمغرب الأقصى وذلك خلال النصف الثاني من القرن 16م، هذه الفترة التي شهدت عدة توترات وأزمات في العلاقة بين هذين البلدين، خاصة في ظل رفض الدولة السعدية النفوذ العثماني في المنطقة وإقامتها لعدة تحالفات إقليمية مع دولٍ معادية لإيالة الجزائر.

كما نسعى من خلال هذه الدراسة أيضا أن نوضح عوامل الصراع بين الطرفين وتجلياته وبالأخص في ظل دخول قوى إقليمية (إسبانيا والبرتغال) لدائرة هذا الصراع ومحاولتها استغلاله لصالح نفوذها واستراتيجياتها في المنطقة المغربية. هذا؛ ونهدف بشكل خاص لإبراز الجهود الدبلوماسية، ممثلة بالسفارات والبعثات والرسائل الدبلوماسية لإنهاء مظاهر ومسببات هذا الصراع والمساهمة في تهدئة العلاقة المتوترة بين الجزائر والدولة السعدية خلال النصف الثاني من القرن 16م. الكلمات المفتاحية: إيالة الجزائر، الدولة السعدية، العثمانيون، المراسلات، السفارات، القرن 16م.

Abstract: This study attempts to investigate diplomatic endeavors; From correspondence and embassies, to ease the conflict and bring peace between both the regency of Algeria and the Saadian state in Morocco during the second half of the 16th century AD, this period that witnessed several tensions and

crises in the relationship between these two countries, especially in light of the Saadian state's rejection of Ottoman influence in the region and its establishment for several Regional alliances with countries hostile to the regency of Algeria.

À travers cette étude, nous cherchons également à clarifier les facteurs et les manifestations de tension entre les deux parties, notamment avec l'entrée en conflit de puissances régionales (Espagne et Portugal) et leurs tentatives d'exploiter cette influence pour accroître leur influence et leurs stratégies au Maghreb. Nous souhaitons notamment mettre en lumière les efforts diplomatiques, représentés par les ambassades, les missions et les messages diplomatiques, visant à mettre fin aux manifestations et aux causes de ce conflit et à contribuer à apaiser les relations tendues entre la régence d'Alger et la dynastie saadienne durant la seconde moitié du XVI^e siècle.

Keywords: regency of Algeria, Saadian state, Ottomans, correspondence, embassies, 16th century AD.

مقدمة: كان انتصار السعديين على الحكم الوطاسي والاستيلاء على مدينة فاس سنة 1551م بدايةً للوجود الفعلي والقوي للدولة السعدية في المغرب الأقصى، وكان كذلك بدايةً لعهد جديد في العلاقات بين الأخير وبين إيالة الجزائر، وقد سعى الحكام السعديون الأوائل بشدة إلى توسيع نفوذ سلطتهم شرق البلاد وبالتالي نحو أراضي إيالة الجزائر، خاصة وأنهم لم يعترفوا بالنفوذ العثماني في بلاد المغرب، ومنه فإن سعي العثمانيين لبسط نفوذهم في كامل بلاد المغرب واصطدامهم بسعي الدولة السعدية للتوسع نحو الأراضي الجزائرية وبمناوئتها للوجود العثماني سيؤجج في المنطقة صدامات سياسية وعسكرية بين الدولة العثمانية ممثلة في إيالة الجزائر وبين الدولة السعدية.

وفي ظل هذا الصراع والتوتر السياسي بين الطرفين كانت تظهر في غير مرة مساعي ومحاولات دبلوماسية للتخفيف من حدة الصراع وإقرار السلام أو حتى لتوضيح المواقف وإذابة الجليد بخصوص عدة مسائل بين الطرفين.

هذا وتمثل إشكالية الدراسة في: ماهي أبرز مسببات الصراع في العلاقة بين إيالة الجزائر والدولة السعدية؟ وماهي أبرز الوسائل الدبلوماسية التي اعتمد عليها الطرفان من أجل تخفيف الصراع بينهما؟ وما مدى تجاوب الطرفين للطرق والمسااعي الدبلوماسية الرامية

لتحقيق السلام وفض التوترات بينهما؟ وهل تمكنت المساعي الدبلوماسية فعلا في حل المسائل الشائكة بينهما أو بعضها على الأقل؟

أما بخصوص الهدف من الدراسة فهو محاولة تسليط الضوء على جانب مهم من تاريخ العلاقات الجزائرية المغربية في العصر الحديث، ألا وهو الجانب الدبلوماسي، وكذا إعطاء صورة عن كون الصراع والعداء لم يكونا الصفة الدائمة والثابتة للعلاقة بين الجزائر والمغرب الأقصى وبأن الطرق الدبلوماسية والمساعي السلمية كانت فاعلة وحاضرة بقوة وساهمت في غير مرة في إنهاء الأزمات وإحلال السلام بين الطرفين.

1 أولا: في عهد السلطان محمد الشيخ السعدي 1552-1557

1- السفارات والرسائل المتعلقة بالصراع الحدودي بين البلدين: في سنة 1550م وقع أول تصادم عسكري بين إيالة الجزائر والدولة السعدية الناشئة حديثا في المغرب الأقصى، إذ سعى السلطان محمد الشيخ السعدي لتكريس سياسته التوسعية تجاه إيالة الجزائر فقام باحتلال مدينة تلمسان بعدما استولى عليها الجيش السعدي في شهر جوان من السنة المذكورة، غير أن إيالة الجزائر تمكنت من استعادتها بعدما أرسل إليها البايبراي حسن بن خير الدين قائده حسن قورصو الذي تمكنت قواته من استعادة تلمسان بعد معركة ضارية ضد السعديين الذين أرغموا على العودة إلى فاس¹، وقد أبرم حسن قورصو بعد هذا النصر معاهدة ملوية مع محمد الشيخ السعدي تمثلت أهم بنودها في النقاط التالية:

- يعتبر وادي ملوية الحد الفاصل بين البلدين

- احترام الحدود الموروثة عن الزيانيين والمرينيين

- عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكلا الدولتين

- عدم التحالف مع عدو كل طرف ضد الطرف الثاني

- التعاون والتحالف ضد الإسبان.²

1 De Grammont H.D, Histoire d'Alger Sous La Domination Turque 1515-1830, Ernest Leroux Editeur, Paris, S.D, p76

2 هلايلي حنفي، محاولة الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 5، 2013، ص66

وعندما بلغ السلطان العثماني سليمان القانوني الصراع الذي دار بين إيالة الجزائر والقوات السعدية حول مدينة تلمسان سنة 1550 م أقدم على السعي على إقامة السلم بين الجانبين، إذ قام الباب العالي بإرسال وفد من علماء الجزائر إلى المغرب الأقصى سنة 1551 م يترأسهم عبد الله محمد الخروبي الطرابلسي الأصل الجزائري المستقر من أجل عقد السلم وترسيم الحدود بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى¹، ويذكر الإفرائي حول هذه البعثة أنه: "...في سنة تسع وخمسين قدم عليه (محمد الشيخ) بمراكش العالم العلامة الصالح أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي² نزيل الجزائر سفيراً بينه وبين سلطان التُّرك أبي الربيع سليمان شاه صاحب القسطنطينية العظمى بقصد المهادنة بين السلطانين وتحديد البلاد بينهما..."³، ولم يُضف الإفرائي أي كلام بخصوص نتيجة هذه السفارة، غير أن هذه الأخيرة يبدو أنها لم تلق ترحيباً من الجانب السعدي حيث يقول الناصري حولها: "...فأكرم السلطان أبو عبد الله وفادته، إلا أنه لم تظهر ثمرة لمقدمه..."⁴، ورغم أنه لا الإفرائي ولا الناصري ذكرا كيف تم رسم الحدود بين البلدين ولا ما دار خلال البعثة، إلا أن توفيق المدني أكد على أن اللقاء بين سفير السلطان العثماني ومحمد الشيخ السعدي انتهى برسم حدود فاصلة بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى من ساحل البحر المتوسط إلى مشارف الصحراء⁵، غير أن الأحداث التالية تفنّد رأي المدني وتؤكد فشل بعثة الخروبي واستمرار الصراع بين العثمانيين ومحمد الشيخ السعدي.

1 الإفرائي محمد الغير الفشتالي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق أهوداس، مطبعة بردين، أنجي، فرنسا، 1888، ص 41، 42، الناصري أحمد بن خالد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دط، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954، ج 5، ص 27

2 ينظر ترجمته في: ابن عسكّر محمد الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، 1977، ص 126

3 الإفرائي، المصدر السابق، ص 42

4 الناصري، المصدر السابق، ص 27

5 المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، دار البعث، قسنطينة، د.ت، ص 331. وقد جاء عنه أن ذلك كان سنة 1553 (961 هـ)

هذا، كما بعث الباب العالي بخطاب موجّه لمحمد الشيخ السعدي¹ جاء فيه إبراز لدور محمد الشيخ في خدمة الدين الإسلامي وتأكيد على النسب الشريف للسلطين السعديين، إذ ورد في هذا الخطاب المؤرخ في محرم 959هـ/ديسمبر 1551م: "...هذا مثالنا...أصدرناه إلى الجنب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد...وأنت من أولاد سيد المرسلين...وقد سُمع بسدتنا العلية حسن إقدامك وكمال دينك...وصفاء سيرك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع أعداء الدين...ولذلك الشأن حباك إحساننا الشريف...فأنعمنا عليك وعلى ولدك بثلاث خلع سلطانية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسيج المودة بيننا..."²، وفي هذا الخطاب ما يؤكد بوضوح حرص السلطان العثماني على إقامة علاقات السلم والود مع السلطان السعدي ونبذ سبل الصراع والتخاصم بين إيالة الجزائر والدولة السعدية منه تأكيد السلطان العثماني على النسب الشريف لنظيره السعدي وكذا إرسال الهدايا كدليل على الإخلاص والمودة من الباب العالي إلى السلطان محمد الشيخ³.

وتأكيدا منه على اتباع سياسة السلم واحترام قواعد الجوار قرر الباب العالي عزل حسن باشا بن خير الدين وتولية صالح رايس على إيالة الجزائر، وقد راسل السلطان العثماني نظيره السعدي حول هذه الخطوة في رسالة مؤرخة في محرم 959هـ/ديسمبر 1551م جا فيها "... هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني...أصدرنا إلى...حاكم ولاية فاس يومئذ الشريف محمد دام علوه وزاد سموه...ولما بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين لذلك بدلناهم غيره فأنعمنا

1 من غير المستبعد أن يكون هذا الخطاب قد أرسل مع محمد الخروبي أثناء وفده على محمد الشيخ السعدي، وأن هذه البعثة كانت أساسا من أجل تسليم السلطان السعدي خطاب الباب العالي.

2 بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية النصف الأول من القرن 10هـ/16م، تقديم خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، تركيا، 2010، ج 1، ص 157

3 يرى المؤرخ التركي المعاصر كوخان يسيلمن (Gokhan Yesilmen) أن العلاقات بين الدولة العثمانية والسلطنة المغربية بدأت في عهد سليمان القانوني، ثم تطورت هذه العلاقات التي لم تتجاوز تبادل سفراء النوايا الحسنة وتبادل الهدايا، غير أن هذا الطرح تفنذه الأحداث التاريخية اللاحقة التي جرت بين الطرفين وفي عهد سليمان القانوني بالذات، حول هذا الطرح ينظر:

Yesilmen Gokhan, Osmanlı Devleti'nin Fas Siyaseti Uzerine bir Degerlendirme, Medeniyet ve toplum, Cilt:2, Sayi:2, 2018, p108

بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية...صالح باشا... ولا بد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة...ولذلك الشأن كتبنا إليكم منشورا يوجب مضمونه المصافاة ويشفي مكنونه أن تكون المودة أقصى الغايات...¹، ومن خلال هذه الرسالة تظهر كذلك نية السلطان العثماني في تجنب الخيار العسكري في مواجهة الدولة السعدية واتباع أسلوب السلم وحسن الجوار مع السعديين، إذ بيّن الباب العالي في هذا الخطاب للسلطان السعدي أن الدولة العثمانية لا تتطلع إلى الحرب بل وتحرص كل الحرص على أن تكون سياسة حكامها في الجزائر متجهة نحو السلم ونبذ العنف.

غير أن تنصيب صالح رايس² بعد عزل حسن بن خير الدين وكذا المساعي الدبلوماسية للباب العالي لن يوقفا النزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي³ وأن خيار السلم مع السعديين سوف يبيء بالفشل مما سيفرض على العثمانيين اللجوء للخيار العسكري أمام تهديدات محمد الشيخ.

واستمرت مساعي الصلح بين إيالة الجزائر والدولة السعدية إذ وصل إلى فاس في خريف عام 1555 مسفير من إيالة الجزائر، وهذا حسبما جاء في الرسالة التي بعث بها الحاكم البرتغالي في مدينة القصر الصغير إلى حكومة بلاده بتاريخ 25 أكتوبر 1555 م رغم أن الحاكم البرتغالي قد أقرّ فيها بأنه يجهل موضوع السفارة وكذا النتائج التي أسفرت عنها⁴.

ويمكننا القول أنه منذ مقتل أبي حسون الوطاسي (الذي كان العثمانيون يدعمونه ضد السعديين) لم يعد لإيالة الجزائر في المغرب الأقصى ورقة تلعبها ضد السلطان السعدي غير المواجهة المباشرة أو الجنوح إلى السلم، ولو ظرفيا على الأقل، ولهذا فقد اختارت حكومة الجزائر الطريقة الثانية في التعامل مع محمد الشيخ السعدي ألا وهي البحث عن هدنة معه

1 بيات، المرجع السابق، ج1، ص159، 160

2 حول الخطاب الخاص بتعيين صالح رايس على إيالة الجزائر ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص161، 162

3 حول النزعة التوسعية لمحمد الشيخ ومقاومتها من طرف صالح رايس ينظر: مبرك فيصل، وقوف صالح رايس في وجه النزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي 1539-1557 م، مجلة تاريخ المغرب العربي، جامعة الجزائر 2، ع9، 2018.

4 حماش خليفة، كشاف وثائق الجزائر في الكتابات المتعلقة بالمغرب من العهد العثماني إلى العهد الراهن، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2018، ج2، ص31

والعمل على وضع حد للحرب ريثما تعيد ترتيب أوراقها، خاصة وأن الجزائر في هذه الفترة كانوا تتأهب لمعركة حاسمة مع الإسبان في بجاية والتي ستنتهي بتحريرها نهائيا سنة 1555م.

2- سفارةُ تهنئة الباب العالي لمحمد الشيخ السعدي باستلامه عرش فاس: بعد قضاء الدولة السعدية بشكل نهائي على الوجود الوطاسي في المغرب الأقصى واستلامهم عرش البلاد مرة أخرى قام السلطان العثماني بإرسال سفارة جديدة إلى محمد الشيخ السعدي يهنئه من خلالها على تولي حكم المغرب الأقصى ويدعوه فيها إلى الصلح مع العثمانيين في الجزائر وإلى إعلان التبعية للباب العالي، وهو ما جاء في الرسالة التي بعث بها الحاكم البرتغالي في مدينة القصر الكبير إلى حكومة بلاده والمؤرخة في 15 جانفي 1557م¹، كما قد ورد عند المؤرخ المجهول نصا حول هذه البعثة ونتائجها جاء فيه: "...ولمّا تملك السلطان بمُلك المغرب... إذ وقد عليه رسول السلطان سليم² يُسّعه في ملكه ويُعلّمه بما كان عليه بنومرين (بني وطاس) معه من الوداد والهدايا والخدمة إليه... فسكت عنه ولم يجبه بشيء وبقي عنده إلى أن طال جلوس الرجل وطلب منه أن يسرحه فقال له مولاي محمد الشيخ سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بد له أن ينازلك على عمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله..."³.

ومن هذا الردّ الذي أهان به محمدُ الشيخ سفيرَ الباب العالي وسلطان الدولة العثمانية بدا جليا أن السلطان السعدي غير مستعد لإقامة أي صلح مع العثمانيين وإنه يرفض بشدة أن يكون تابعا للدولة العثمانية كما كان الحال مع الوطاسيين، كما أن هذا الرد يبيّن أن الشيخ السعدي يعتبر العثمانيين أعداء له في المنطقة وإنه يسعى لطردهم وإزاحتهم منها وبالأخص من إيالة الجزائر، وهذا ما أكد عليه الإفرائي في سياق حديثه عن علاقة محمد الشيخ السعدي بالدول المجاورة إذ يقول: "...قد فغر أفواهه لالتقامه عدوان عظيمان، عدو من التُّرك وعدو الدين الطاغية..."⁴، ويبدو أن نشوة النصر كذلك قد وسعت من طموحات السلطان

1 المرجع نفسه، ج2، ص32

2 يقصد السلطان سليمان القانوني.

3 مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدرتية، تحقيق عبد الرحيم بنعادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب،

1994، ص31

14 الإفرائي، المصدر السابق، 39

السعدي وحمّلتَه على مقارعة العثمانيين ولا أدلّ على ذلك من قول الإفرائي أن محمد الشيخ لما تغلب على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديّه تأقت هِمَّتُهُ العَلِيَّة إلى بلاد المشرق فكان يقول لأبد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أحجارهم وأنازلهم من ديارهم¹. ومن هنا يمكننا القول -بخصوص بعثة السلام العثمانية الأخيرة إلى السلطان السعدي- أن الأخير قد كان في موقف قوة بعد قضائه على أبي حسون وانفراده بالحكم في المغرب الأقصى، ومنه فقد أصرّ على مواجهة العثمانيين وعدم الجنوح إلى السلم معهم، أما في الجهة المقابلة فإنه يمكننا القول أن العثمانيين لم يطلبوا الصلح من محمد الشيخ السعدي من أجل الصلح وإنما فقط من أجل كسب بعض الوقت للتفرغ لتحرير بجاية² من أيدي الإسبان وإعادة ترتيب أوراقيهم أكثر في المنطقة.

ثانياً: في عهد السلطان عبد الله الغالب بالله السعدي:

- 1- سعي الباب العالي لتوطيد سياسة الصلح مع الغالب بالله السعدي: رغم أن علاقة إيالة الجزائر مع الدولة السعدية في بداية فترة الغالب بالله السعدي (تولى الحكم سنة 1558 م) كانت علاقة صراع وتخاصم والذي تجلّى في معركة وادي اللبّ سنة 1558 م وفي إقامة التحالف السعدي الإسباني خلال السنة ذاتها وكذا في إيواء الجزائر للمعارضة السعدية المتمثلة في الأمراء السعديين المنشقين³ عن السلطان الغالب بالله السعدي ودعّمها ضد الأخير، إلا إنه مع حلول سنة 1564 م رأت الدولة العثمانية أن تسلك مسلك التهدئة والصلح الحذر في التعامل مع الأوضاع في المغرب الأقصى وذلك لأسباب عديدة أهمها:
 - هزيمة جيش الجزائر ضد السعديين في معركة وادي اللبّ.
 - التحالف الإسباني السعدي ضد العثمانيين.
 - محاولة الإسبان احتلال مستغانم سنة 1558 م.

1 المصدر نفسه، ص42

2 تم تحرير بجاية على يد صالح رايس في شهر سبتمبر 1555 م. حول ذلك ينظر:

Haedo, Histoire des Rois d'Alger, Tr, H.D. De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger, 1881, p93, De la primaudie Ilie, Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation espagnol en Afrique 1505-1574, A. Jourdan Libraire Editeur, Alger, 1875, p 281, 282

3 هم إخوة السلطان الغالب بالله: عبد المؤمن، عبد الملك وأحمد المنصور.

- تهديدات فرسان مالطا لتونس وطرابلس الغرب سنة 1560 م

- خسارة صخرة بادس لصالح الإسبان سنة 1564 م.

- الاستعداد لحصار مالطا سنة 1565 م.

في ظل هذه المعطيات والأحداث التي تمر بها الدولة العثمانية وإيالاتها في غرب المتوسط رأت السياسة العثمانية أن تُقيم الصلح وتسعى إلى التهدئة بين الأمراء السعديين اللاجئين في إيالة الجزائر وبين أخيمهم السلطان الغالب بالله السعدي، حيث أن الصراع العسكري مع المغرب الأقصى لن يكون مجددا في ظل هذه الموازنات الإقليمية والدولية التي يشهدها حوض المتوسط والمنطقة المغربية، وعلى إثر ذلك بعث الباب العالي برسالة يرد فيها على الأخوين عبد الملك وعبد المؤمن (اللاجئين في إيالة الجزائر) بتاريخ 29 رمضان 972هـ/أفريل 1564م والتي جاء فيها: "حكم إلى خلفي الأماجد والأكارم شرفي المحامد والمكارم، المختصان بمزيد من عناية الملك الدائم الشيخ عبد المؤمن والشيخ عبد الملك دام علوهما...وأمرت: عند وصول أمري الشريف الواجب اتباعه ألا تغفلا على مداراة شقيقكما بالشكل والأسلوب الذي يراه حسن باشا دام إقباله أمير أمراء الجزائر مناسبا كي تضلا في أحسن حال..."¹.

ويتضح لنا من خلال مضمون الرسالة حرص السياسة العثمانية على ضرورة إيجاد حل سلمي للأزمة الحاصلة بين الأمراء السعديين، وعلى ضرورة استخدام الأساليب الدبلوماسية واتباع خيار الصلح من أجل حلحلة الأزمة، كما فيها توكيد من الباب العالي على حتمية تنسيق الأمراء السعديين اللاجئين لدى إيالة الجزائر مع حاكمها تجنباً لأي ردة فعل فردية من قبل عبد الملك وعبد المؤمن تجاه عبد الله الغالب، وتجدر الإشارة إلى أن حكومة الجزائر قد عقدت معاهدة سلام مع عبد الله الغالب السعدي للمرة الأولى عام 1560م حسب إحدى الرسائل الموجهة للبلاط البرتغالي بتاريخ 6 فيفري من العام المذكور²، ومنه نستنتج أن الباب العالي لم

1.أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 971، 7 رمضان 972 هـ

2.حماش، المرجع السابق، ج2، ص34

يكن منذ الوهلة الأولى ناويا على التدخل العسكري ضد عبد الله الغالب بالله، ولو أنه قام بتأييد ثورة عبد الملك وعبد المؤمن ضد أخيهما الغالب بالله¹.

بيد أن محاولة الباب العالي إقرار الصلح بين الأمراء السعديين لم تُكَلِّ بالنجاح إثر نقض معاهدة الصلح من طرف عبد الله السعدي كما هو واضح في الرسالة التالية، هذا التطور الحاصل جعل السلطان العثماني يحث حاكم الجزائر حسن بن خير الدين على ضرور تسيير الأزمة السعدية وفق ما تقتضيه مصلحة إيالة الجزائر، حيث جاء في مراسلة من الباب العالي لبایلر باي الجزائر بتاريخ 3 رمضان 972 هـ/ 4 أفريل 1565 م:

"حُكِمَ إلى بكركي جزائر الغرب حسن باشا

أرسلت رسالة إلى عتبي العليا تبلغ فيها أنه سبق أن تم عقد الصلح بين حاكم فاس عبد الله وبين أخويه عبد المؤمن وعبد الملك بوساطة بعض الصلحاء إلا أنه تم نقض ما تعاهدوا عليه فعادوا إلى الجزائر...وقد صدر حكمي السلطاني إلى أخوي حاكم فاس المشار إليه والموجودين عندك وأرسل إليك وتقوم بتسليتهما بالشكل الذي تراه مناسبا...ولهذا فقد تم إرسال...وزير مصطفى باشا على رأس أسطولي السلطاني العظيم إلى البحر، وكلف بفتح قلعة مالطا والسيطرة عليها، وبعد انجلاء وضع هذه الغزوة الشريفة وعند عدم قيام حاكم فاس المومأ إليه بالجنوح إلى الصلح والصلاح...وأظهر العداء وأصر على المخالفة تجاه تلك الأرجاء فإنه سيتم تديير أمره في وقته وحينه، ووفق ما يستدعيه مآب سلطنتي..."²، ومن خلال مضمون هذا الخطاب نلاحظ تأكيد الباب العالي على ضرورة اتباع أسلوب الصلح والسلم تجاه الأزمة السعدية، كما حث الباب العالي حاكم الجزائر على التعامل مع إخوة عبد الله الغالب حسيما تقتضيه مصلحة الدولة العثمانية وإيالة الجزائر، إلا أن الخطاب السلطاني لم يخلُ كذلك من الإشارة إلى ضرورة ردع عبد الله الغالب إن هو لم يجنح إلى السلم وقرر مواصلة إظهار العداء تجاه إيالة الجزائر وأخويه اللاجئين فيها.

1 المرجع نفسه، ج. 2، ص 34

2 أ.و.ج، مهمة دفترتي 6، حكم 972، 3 رمضان 972 هـ

كما نجد من خلال هذا الخطاب أن الباب العالي قد فضّل تأجيل اتخاذ خطوة عسكرية تجاه الغالب بالله بسبب استعداد الدولة العثمانية لحصار جزيرة مالطا سنة 1565 م، حيث نبّه الباب العالي حاكم الجزائر على ضرورة كسب الوقت ومحاولة تجنب الصراع العسكري مع عبد الله الغالب بالله إلى ما بعد حصار مالطا.

وفي مراسلة أخرى موجهة من الباب العالي لحسن بن خير الدين بتاريخ 12 جمادى الأولى 976 هـ/ 02 نوفمبر 1568 م أخبر فيها السلطان العثماني حاكم الجزائر بمجيء عبد الملك السعدي إلى القسطنطينية وبطلبه التدخل العثماني لحل الصراع بينه وبين أخيه عبد الله، وقد جاء في هذا الخطاب:

"حُكم إلى أمير أمراء الجزائر

لقد حضر إلى سدة سعادتنا خلف الأمراء الكرام السيد عبد الملك دام علوه دام شقيق السيد عبد الله حاكم مراكش معلنا ولاءه وقد أعرب المذكور عن النزاع الدائر بينه وبين شقيقه بخصوص الحكم واسترعى إصدارنا خطابا همايونيا لمنحه مكانا قريبا من الجزائر لأجل معيشة وكذلك بدل مساعينا لفصل الخلاف القائم بينهما بطريق الصلح والصلاح ودون حرب وقتال كيلا يلحق بالرعية أذى ورجا أيضا تعيين كل من السيد أحمد النوي والسيد سعيد المصري بن عاشور وهم من علماء وصلحاء الجزائر لإصلاح ذات البين بطريقة الرسالة ومطالبتهم لأخيه بإعطائه مدينة فاس.

وإذا تعذر ذلك فليطالبوه بمدينة تارته (تازة) وتفله (تافيلالت) مع توابعهما..وأمرت: أن تتصل بالمذكور حال وصول هذا الحكم وفي حال موافقته على الصلح والصلاح فلتشكل الوفد على الوجه الذي ورد في خطابي الشريف ولتبعث به بالأسلوب والطريقة المناسبة..ودعهم أيضا يتجسسون آراء الناس خفية كي تظهر نواياهم فيمن يرغبونه حاكما عليهم وليحذروا من حيلة وخديعة المشار إليه حتى يتم الصلح والصلاح على أكمل وجه.¹ وفي هذه الرسالة الموجهة لحاكم الجزائر تأكيد عثماني على حتمية إيجاد حل سلمي للصراع بين الأمراء السعديين وعلى ضرورة تجنب الخيار العسكري، وهذا ما نجده أيضا عند المصادر

1. أ.و.ج، مهمة دفتري 7، حكم 2439، 12 جمادى الأولى 976 هـ.

المغربية التي تؤكد أن السلطان العثماني رفض مساعدة عبد الملك عسكرياً منذ الوهلة الأولى، حيث يقول صاحب الدولة التكمدراتية في هذا الصدد: "...ولما تمهد السلطان في ملكه بعد وفاة أبيه استقر مولاي عبد الملك مع أمه الرحمانية في ديار إصطنبول عند السلطان مراد¹ وأعلمه بملك أخيه فسأله محلة لمنازعة أخيه ورد عليه القول وقال له: إني لا أعينك على فتنة المسلمين وأخوك قد تولى وبأيعه المسلمون من أهل المغرب وهو أكبر منك سناً لكن سأرسل له... فأتى رسول من عند السلطان مراد إلى مولاي عبد الله ليستخبر أهل البلاد هل هم راضون به أم لا وهل هو عادل في الرعية أم جائر إلى أن بلغ الرسول إلى مراکش"²، وهنا تتفق رواية "المؤرخ المجهول" مع مضمون رسالة الباب العالي في أن الأخير رفض الخيار العسكري لحل الأزمة وفضل اتباع أسلوب الصلح بين الأمراء السعديين.

وكما بعث الباب العالي بفرمانٍ (أمر، رسالة سلطانية) لحاكم الجزائر أرسل كذلك خطاباً لعبد الله الغالب بالله متعلقاً بنفس الموضوع يحثه فيها على ضرورة إيجاد حل سلمي للأزمة بينه وبين إخوته الاجئين في الجزائر وأن يولّهم على بعض الأقاليم في المغرب الأقصى، ومما ورد فيه: "...إن أخاك عبد الملك قدم إلى حضرته مظهراً للإخلاص والعبودية والانتماء... ويكون هذا الإخلاص مؤدياً لإصلاح ما بينكم وسبباً لمزيل الشقاق من بينكم... فلأجل إخلاصك ينبغي أن تُعين لأخيك المشار إليه شيئاً من الممالك التي انتقلت إليكم من آبائكم الكرام... وترعى حق الأخوة فيه، وتزيل ما بينكم من الشقاق والعناد، وتكونوا مجدين في حفظ البلاد وصون العباد..."³، ويبدو أن الغالب بالله قد رحّب ببعثة الصلح التي أرسلها السلطان العثماني وقبّل بشروط السلم مع الباب العالي وإيالة الجزائر وهو ما يتضح لنا من رواية "المؤرخ المجهول" الذي جاء عنه في ذات السياق أن عبد الله الغالب بالله استقبل بكرم المبعوث العثماني وأرسل معه ذخائر من الذهب والياقوت إلى نظيره العثماني، كما وعد المبعوث بأن يتولى شؤون إخوته وأن يرعاهم وينفق عليهم، ثم إن عبد الله الغالب

1 استلم مراد الثاني الحكم بعد وفاة أبيه السلطان سليم الثاني في أكتوبر 1574م.

2 الدولة التكمدراتية، المصدر السابق، ص 38، وينظر كذلك: الإفرائي، المصدر السابق، ص 60

3 بيات فاضل، لدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً، مطلع العهد العثماني-

أواسط القرن 19م)، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007، ص 605

بعث بكتابه أبا محمد السريغيني إلى الأستانة رفقة المبعوث العثماني حيث التقى "السريغيني" بالسلطان سليم الثاني واتفق معه على شروط الصلح قبل أن يعود إلى المغرب الأقصى ويخبر عبد الله بحديثات هذا الصلح الذي رضي به كلا الطرفين حسب "المؤرخ المجهول"¹.

وفي رسالة أخرى موجهة لعبد المؤمن (أخ السلطان الغالب بالله واللاجئ في إيالة الجزائر) بتاريخ 22 جمادى الأولى 978هـ/أواخر سنة 1570م دعا الباب العالي عبد المؤمن إلى عقد الصلح بينه وبين أشقائه وإصلاح الأحوال فيما بينهم "...ينبغي إحلال الصفاء بينكم وامتثال أشقاكم لأوامركم وعدم العدول والانحراف عن جادة الشرع والقناعة بالأماكن المعينة لهم لإزالة سوء التفاهم...يجب أيضا حسن المعاشرة والموالة والمؤاخاة بينكم...فإن مرادنا هو صفاء الأخوة بينكم..."² مما يبين حرص الباب العالي إلى حد هذا التاريخ على ضرورة اتباع أسلوب السلم ومحاولة إقرار الصلح بين المعارضة السعدية المقيمة في الجزائر وبين السلطان الغالب بالله السعدي.

إلا أن تمسك الغالب بالله وولده وخليفته محمد المتوكل بالنزعة العدائية تجاه إيالة الجزائر قد أبطل كل مساعي الصلح بينه وبين الأخيرة والباب العالي، خاصة بعد اغتيالهما للأمير عبد المؤمن اللاجئ بالجزائر سنة 1570م³ إضافة إلى عقدهما مجموعة من التحالفات مع مملكة إسبانيا ضد إيالة الجزائر والوجود العثماني في المنطقة⁴.

ثالثا: في عهد السلطان أحمد المنصور:

1- رسائل التهئة من الباب العالي لأحمد المنصور بانتصار وادي المخازن واستلام العرش السعدي: بعد معركة وادي المخازن التي قتل فيها كل من عبد الملك السعدي الذي كان مدعوما من الباب العالي وكذا عبد الله الغالب عدو العثمانيين في المغرب الأقصى استلم حكم العرش

1 الدولة التكمدراتية، المصدر السابق، ص39

2 أ.و.ج. مهمة دفتري 14، حكم 625، 22 جمادى الأولى 978هـ

3 ينظر: دي طوريس ديغفو، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد الحجي ومحمد الأخضر، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص232

4 ينظر: عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المغرب، 2006، ص83 وما بعدها



السعدي السلطان أحمد المنصور¹، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من العلاقات بين الدولة السعدية وإيالة الجزائر والباب العالي.

انطلاقاً من علاقة أحمد المنصور الجيدة مع الباب العالي وإيالة الجزائر على اعتبار أنه كان لاجئاً سياسياً فيها، وعلى أساس أن الأخيرة قدمت له ولأخيه عبد الملك كل الدعم السياسي والعسكري لاستعادة عرشهما على المغرب الأقصى، وكذلك تجنباً لدعم حكام الجزائر أي طرف ضده في المغرب الأقصى، فقد بعث أحمد المنصور برسالة إلى السلطان العثماني مراد خان يبشره بالنصر على البرتغاليين واعتلائه عرش فاس²، وفي هذا يقول الفشتالي: "...وانتشر في المعمور خبره وشفع الله ذلك بما أصر إليه من الخلافة...خاطب لحينه صاحب القسطنطينية العظمى وسائر ملوك الإسلام..."³، وقد جاء أيضاً في هذه رسالة المنصور الموجهة للباب العالي: "...مقام السلطان الأعظم الخاقان الأفخم، المجاهد الأكبر الماجد الأخطر...ناصر السنة والدين، قانع الكفرة والمشركين...السلطان مراد خان بن السلطان الجليل المقدار...فإننا كتبناه إليكم كتب الله لمقامكم عزاً يتكفل بإعلاء كلمة الإسلام واستئصال شأفة عباد الأوثان والأصنام من حضرتنا العلية حمراء مراكش المحروسة بالله المحمية..."⁴.

ونلاحظ أن في هذه الرسالة حرص المنصور على إبلاغ الباب العالي بالنصر على المتوكل والبرتغاليين، كما نلاحظ أنها قد امتلأت بعبارات التقدير والتفخيم للسلطان العثماني مراد خان وأسلافه العثمانيين وفيها تبشير له على النصر في معركة وادي المخازن واستعادة العرش السعدي وهزيمة النصارى البرتغاليين، ولم تتضمن هذه الرسالة إبلاغ الباب العالي بالنصر

1 للمزيد حول معركة وادي المخازن ونتائجها ينظر: أبو خليل شوقي، وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1988، بن قומר جلول، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا 1578-1603م، رسالة

ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، الجزائر، 2011

2 أرسل هذا الخطاب للسلطان العثماني من طرف أحمد المنصور مع وفد برئاسة أحمد بن يحيى الهوزالي، ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص82، 81

3 الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كرتيم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، المغرب، دت، ص48

4 مجهول، رسائل سعدي، تج، عبد الله كتون، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954، ص21-28

المحقق فقط بل ورد فيها أيضا التزام المنصور وتأكيده ولأنه للعثمانيين إذ ورد فيها كذلك: "...وَسُورَ ولأنكم لدينا على الدوام متلوة وعقائل مصافاتكم على منصات التنويه مجلوة ومكنونات محبتكم الإيمانية بين الجوانح مخبوة..."¹.

وفي المقابل رد الباب العالي على أحمد المنصور مهنئا بأن بعث له وفدا أرسل من طرف حاكم إيالة الجزائر كان أول من هنأه بالنصر وباستلام العرش السعودي، حيث يقول الفشتالي أنه "...كان أولهم ورودا على سدته الشريفة وأبوابه العلية المنيعة رسول صاحب الجزائر لاقترابه، فبلغ الرسالة وأدى الهدية وكان فيها من فساطيط الهند الغربية الشكل والصنعة وزرابي ماثوثة وطرف نفيسة..."²، وقد تضمنت رسالة المنصور السابقة للباب العالي إشارة إلى الوفد العثماني الذي جاء مهنئا من إيالة الجزائر وأنه قد فرح به وأكرم مثواه إذ ورد فيها: "...هذا وقد وفد على عُليّ مقامنا خطابكم الخاقاني ومدرجكم العلي السلطاني صحبة إرسال جنابكم السامي العثماني...وبسطنا له مايليق به من المبرة والتنويه بساطا وتلقيناه بوجه الترحيب والتكريم سرورا بمقدمه واغتباطا..."³ ومن هنا يتضح لدينا أن علاقة الدولة العثمانية وإيالة الجزائر خاصة مع السلطان السعودي الجديد كانت على أحسن حال وعلى وفاق تام، وقد استمرت على هذا النحو إلى غاية أن حدث تقارب سعودي -إ=اني كدّر العلاقة بين العثمانيين والسلطان السعودي.

2- سعي أحمد المنصور لاسترضاء الباب العالي وحكومة الجزائر: بعد توليه العرش حرص المنصور على إقامة علاقات جيدة مع جيرانه، فعلى غرار رسائل الود التي أرسلها للباب العالي، قام المنصور كذلك بإقامة علاقات جيدة مع الإسبان، فبدايةً قبل طلب الملك فيليب الثاني بتسليم جثة دون سيباستيان (المقتول في المغرب الأقصى خلال معركة وادي المخازن عام 1578م) للوفد الإسباني البرتغالي المشترك الذي قصّد المنصور بعد توليته، ثم قام بإطلاق السفير الإسباني الذي أُسر أثناء معركة وادي المخازن، فضلا عن كونه تعهد بآلا يتحرك ضد

1المصدر نفسه، ص21

2الفشتالي، المصدر السابق، ص49

3رسائل سعودية، المصدر السابق، ص22

القوات البرتغالية في شمال المغرب الأقصى¹، ولم يقف تقارب المنصور من الإسبان عند هذا الحد بل دخل في مفاوضات مع المبعوث الإسباني القسيس مارين (Marin) من أجل التنازل لهم عن ميناء العرائش الذي ترى السلطات الإسبانية أنه يشكل تهديدا لها من قبل العثمانيين في شمال المغرب الأقصى².

أثار هذا التقارب السعودي الإسباني مخاوف إيالة الجزائر والباب العالي، ومن أجل ذلك سعى العثمانيون للحيلولة دون استمرار هذا التقارب وكان ذلك عن طريق عدة خطوات متتالية، كانت أولها عرضُ السلطان العثماني مراد الثالث على أحمد المنصور في سبتمبر 1580م عقد تحالف بين الطرفين ضد الإسبان وهو ماتضمنته رسالة من الباب العالي إلى المنصور جاء فيها: "...فلما وصل بمسامعنا الشريفة... خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى مملكة برتقال... وأنه لكم جار وعدو مضرار... نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكما عثمانية تستفتح بها إن شاء الله الأندلس..."³، وبعدها قام السلطان العثماني في السنة ذاتها بعزل حسن باشا فنزيانو حاكم إيالة الجزائر الذي لم تكن علاقته جيدة بأحمد المنصور بعدما طالبه بتحسين العلاقات معه، أما الخطوة الأخيرة فتمثلت في محاولة السلطان العثماني مصاهرة المنصور بأن عرض عليه أن يزوجه إحدى بناته، إذ جاء في إحدى الرسائل لسلطانية الموجهة للسلطان السعودي "...عهدنا إلى أمير الأمراء... أن يصهر لكم على إحدى بناتنا... إسعافا لغرضكم المنيف..."⁴ وكما أن في هذا العرض تأكيداً عثماني على نية للباب العالي الحسنة تجاه المنصور، فهو كذلك خطوة زواج سياسي سيعود بالنفع على الدولة العثمانية التي ستضمن من خلاله -إن نجح- ولاء السلطان السعودي.

لكن، يبدو أن المنصور لم يرد على الباب العالي لا بقبول التحالف العسكري ولا بقبول مصاهرة السلطان العثماني وأنه ماض في توطيد علاقاته مع الإسبان، ولهذا فقد قررت الدولة

1 ابن خروف عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1519-1659، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، سوريا، 1983، ص222،

223

2 كرتيم، المرجع السابق، ص113

3 المرجع نفسه، ص111

4 كرتيم، المرجع السابق، ص112

العثمانية التدخل عسكريا في المغرب الأقصى لردع المنصور وجعله يعيد النظر في علاقاته مع المملكة الإسبانية.

هنا تذكر المصادر التاريخية أن بايلرياي الجزائر علي هو من طلب من السلطان العثماني التدخل في المغرب الأقصى وردع أحمد المنصور عسكريا، فقد جاء عن الفشتالي: "...ثم إن علوج علي وزير البحر... صار يبطن بذلك عداوة لأبناء النبي الخلفاء الراشدين بالمغرب... فشمربذلك لإثارة الوحشة بين المملكتين... وحرك منه بذلك النزعات الملوكية وزين له الانحدار للمغرب... وأسدى في هذه المكيدة بيد سلطانه وألحم حتى وجد منه أذانا صاغية وبرزله الإذن بتجهيز الأساطيل..."¹، ويبدو أن توقيع أحمد المنصور لهدنة جديدة مع الإسبان في جانفي 1581 م² هو ما جعل حاكم الجزائر يطلب من الباب العالي ضرورة التدخل في المغرب الأقصى لردع أحمد المنصور ومنعه من المضي قدما في إقامة التحالفات مع المملكة الإسبانية، وأمام احتمالية حدوث رد الفعل العثماني لم يجد المنصور بُدأ من إرسال بعثة دبلوماسية إلى الباب العالي لتهدئة الأوضاع والتأكيد على استمرار حُسن العلاقات بينه وبين إيالة الجزائر.

ويذكر الإفرائي في هذا الصدد: "...وبعث أرساله إلى السلطان المذكور بهدية عظيمة وكان من إرساله القائد الأنجب أحمد بن ودة العمري والكاظم الشهير أبو العباس أحمد بن علي الهوزالي..."³، وقد كان الوفد السعدي قد عبّر للسلطان العثماني عن أسفه في التأخر عن الرد عن خطاب الباب العالي⁴ وأن ذلك لم يكن إلا لانشغال المنصور بأوضاع بلاده، فقبل السلطان العثماني تبرير الوفد السعدي وأمر علي بالتراجع عن غزو المغرب الأقصى، كما أرسل السلطان العثماني بدوره وفداً إلى المنصور يعبر عن امتعاض الباب العالي من "التراخي في أمور الملوك" وهو ما جعل المنصور يرد برسالة لتلطيف العلاقات بين الطرفين مع الوفد

1 الفشتالي، المصدر السابق، ص 61، 62، وينظر كذلك: الإفرائي، المصدر السابق، ص 86

2 كريمة، المرجع السابق، ص 112

3 الإفرائي، المصدر السابق، ص 86

4 كان عدم رد المنصور على خطاب السلطان العثماني الذي عرض فيه المساعدة والمصاهرة والذي ذكرناه أعلاه من الحجج التي أراد بها علي إقناع السلطان العثماني على غزو المغرب الأقصى خاصة بعد تحالف المنصور مع الإسبان.

العثماني وقد حمل هذا الرد كل من أبي القاسم بن علي الشاطبي وعبد الرحمن بن منصور الشياطي¹.

ونظرا للدور الذي لعبه بايلرباي الجزائر علق علي في هذا التحرك العثماني ضده فقد أرسل إليه أحمد المنصور خطابا يعبر فيه عن امتعاضه وقلقه إزاء ذلك في رسالة جاء فيها "...مثابة القبطان المعظم الماجد الأكرم...أبي الحسن علي باشا أبقاه الله...أما بعد...إلى أن ورد خبر التحرك الذي كان لكم لهذه الناحية...فتأدى إلينا عنكم بوجه كان الظن بكم خلافه...ومازلنا ونحن نستغرب لشنآنكم ذلك داعيه وسببه وتجردكم للعدوان لا لأمر اقتضاه وأوجبه..."²، وفي المقابل -وبعد أن طلب منه السلطان العثماني التراجع عن التدخل في المغرب الأقصى- أرسل علق علي رسالة تضمنت خطاب لأحمد المنصور فيه توضيح لموقفه الدافع للقيام بهذه الحملة التي قادها ضده، إذ ورد في نفس الخطاب المذكور: "...إذ ورد على بابنا رسولنا الأئب من تكم الأبواب العثمانية...فأنهى إلينا بما تلقاه منكم...على أن تحرككم ذلك ما كان منكم لباعث نفسي...وأنكم فيه على غير هوى منكم ولا اختيار محمولين في أمره...فعندما قررلنا عنكم هذا النبأ المتأول والعذر الواضح لمن تأمل زال عن النفوس ذلك الامتعاض...فأنهينا إليكم خطابنا هذا..."³، وبهذا تمّ إذابة الجليد نوعا ما فيما يخص العلاقة بين علق علي والسلطان السعدي.

3- مرحلة "السلام الحذر" بين السلطان أحمد المنصور وإيالة الجزائر: رغم التصالح الظاهر وبعثات الصلح بين السلطان أحمد المنصور والسلطان العثماني إلا أن الأخير بقي متوجسا من السلطان السعدي ومن علاقته بإسبانيا، فبعد تأهب السفير المغربي الذي كان في الأستانة سنة 1581م للعودة إلى دياره بعث الباب العالي مراسلة لحاكم الجزائر بخصوص سفير المنصور وبخصوص العلاقة المشبوهة بين السلطان السعدي وبين الإسبان جاء فيها: "...ولقد أمرت حضرة القبطان علق علي بأن يتولى إيصاله إلى بلاده سالما غانما...وعند وصول أمري الشريف إليكم بادروا في اتخاذ جميع الاجراءات اللازمة من أجل استقبال

1 ينظر: الإفرائي، المصدر السابق، ص 86

2 ينظر: رسالة من المنصور إلى علق علي، رسائل سعديّة، المصدر السابق، ص 68-72

3 المصدر نفسه، ص 71، 72

السفير المشار إليه أحسن استقبال... ثم قوموا بالتباحث معه في مصلحة البلدين... ولكن على الرغم من التظاهر أمامه بهذا الشكل راقبوا أحواله جيدا وترصدوا تصرفاته... حتى تتحققوا من نية حاكم فاس والمراكش وموقفه الحقيقي منا ومن دولتنا وتبينوا غرضه الحقيقي من إرسال الرسل إلينا... لأن الرجل ممكن أن يتظاهر أمامنا بهذا المظهر المزيف ويتعامل خفية مع الكفار لضربنا من الخلف...¹، ومن هنا تتبين جليا نية الباب العالي وسياسته الحذيرة في التعامل مع أحمد المنصور، وأن الدولة العثمانية وإن كانت تقبل هدايا المنصور وبعثاته للسلام إلا أنها لا تثق فيه كامل الثقة خاصة فيما يتعلق بسياساته تجاه الجزائر وبالتالي فإن العلاقة المبنية معه هي علاقة "سلام حذر" يسيّرهما العثمانيون بحرص وحذر شديدين.

ويتبين، على غرار ما أوردنا، حذر الباب العالي من أحمد المنصور من خلال المراسلة الموجهة لحاكم طرابلس الغرب والتي جاء فيها: "...لهذا فإن الأمر يقتضي التيقظ والانتباه حتى لا نفاجأ بغارة مزدوجة من طرفهم وتكون هذه الثغور محمية ومحروسة حتى ولو اقتضى ذلك التوجه إلى هذه المناطق بالأسطول الشاهاني الكريم لتشديد الحماية والحراسة اللازمين من أجل الدين والدولة..."²، وهذا ما يدل بوضوح على إقرار الباب العالي باستمرار التهديد السعودي-الإسباني على إيالة الجزائر والإيالات المغربية بشكل عام، إذ أن حرص الدولة العثمانية على ضرورة الانتباه لتحركات أحمد المنصور واحتمالية قيامه والإسبان بحملة مزدوجة (سعودية-إسبانية) على إيالة الجزائر يؤكد لنا أيما تأكيد بأن الدولة العثمانية تنظر بعين الشك والريب للسلطان أحمد المنصور وأنها تقيم علاقتها مع المغرب الأقصى وفق مبدأ السلام الحذر، كما نستنتج أيضا من خلال عبارة "ولو اقتضى ذلك التوجه إلى هذه المناطق بالأسطول الشاهاني الكريم" قيمة ومكانة إيالة الجزائر والإيالات المغربية لدى الدولة العثمانية وأنها لن تتوانى مطلقا في الذود عن هذه الأقاليم وردع أي تهديد محتمل يحيط بها.

4- مرحلة الزخم الدبلوماسي بين أحمد المنصور وإيالة الجزائر: رغم الريب الذي بقي لدى الباب العالي تجاه أحمد المنصور إلا أن ذلك لم يمنع الدولة العثمانية من تفعيل دبلوماسيتها

1. أ.ج، مهمة دفترتي 42، حكم 84، 989هـ

2. أ.ج، مهمة دفترتي 42، عدد 82، 989هـ

وتنشطها تجاه المغرب الأقصى، حيث فضل العثمانيون الاستمرار في إرسال واستقبال البعثات الدبلوماسية من وإلى السلطان السعودي، إذ وفي الفترة نفسها من سنة 1581م وردت إلى الجزائر مراسلة أخرى من الباب العالي تأمر بضرورة إظهار كل الاحترام لحاكم فاس عبر رسوله الخاص القادم إلى الأستانة (والذي سيمكث بالضرورة في إيالة الجزائر ويُنقل على السفن الجزائرية) لتقديم كل معاني الإخلاص والعبودية للسلطان العثماني¹، هذه السفارة الأخيرة التي يبدو أنها قد بددت مخاوف وشكوك السلطان العثماني تجاه نظيره السعودي وهو ما يظهر من خلال رد الباب العالي إلى الأخير في مراسلة وُجّهت للمنصور سنة 1582م اشتملت على تقدير وترغيب في استمرار العلاقات الطيبة بين الطرفين واحتوت على ما يؤكد ثقة الدولة العثمانية في أحمد المنصور وقد ورد فيها: "...بالرسالة التي أرسلتها مع شخص من طرفكم أثبت بها الإخلاص والمودة لصدتنا العلية، لذلك قررنا منحك حق الحكم لك ولمن سيأتي من نسلك جيلا بعد جيل بدون انقراض...وما دامت تبعيتكم تعتمد على الصداقة والإخلاص، ولقاء هذا الإخلاص ستحكم البلاد نسلا نسلا إلى يوم القيامة."²، ويدل ما ورد في هذه المراسلة على تأكيد الباب العالي من نية أحمد المنصور وإخلاصه تجاه الدولة العثمانية وأنه لا ينو المساس بأمن إيالة الجزائر ما جعل الباب العالي يقر بحكمه في المغرب الأقصى بل ويدعم حكمه وحكم أبنائه من بعده، وهو ما يؤكد على أن العلاقة بين الطرفين باتت أكثر ثقة وودية بعد أن تبددت عن العثمانيين شكوكهم تجاه المنصور وما يُحيكه ضد الوجود العثماني في بلاد المغرب وفي إيالة الجزائر على وجه الخصوص.

كما استمرت علاقات السلم وتبادل البعثات بين السلطان السعودي وإيالة الجزائر إلى أن صارت بشكل منتظم وشبه دائم، وهو ما يظهر من خلال المراسلات والبعثات الدبلوماسية اللاحقة بين الطرفين، فهذه رسالة بعثها المنصور إلى حاكم الجزائر جعفر باشا³ والتي هي في الأصل رد من السلطان السعودي على سفارة السلم التي أرسلها باشا الجزائر إليه برئاسة الشيخ

1. أ.و.ج. مهمة دفترتي 42، حكم 86، 989هـ

2. أ.و.ج. مهمة دفترتي 48، حكم 31، 990هـ

3 جعفر باشا : من أصل هنغاري، أُسِر في صغره من طرف القوات العثمانية في البلقان، انضم بعد إسلامه إلى فرق الإنكشارية، تولى حكم الجزائر في الفترة ما بين 1580-1582م. ينظر: Haedo, Rois d'Alger, op-cit, p182.

أحمد بن عبد الجليل وقد جاء فيها: "...هذا وموجب إصداره إليكم كون الفقيه الأحظي...أبي العباس أحمد بن عبد الجليل أنجده الله لما قاده رسن الأمل والوداد...فأناخ الرحب بدارنا زائرا...فأنهى لعلائنا من ولانكم ورسوخ مودتكم ما ثبت لدينا دليله...وأثنى عليكم بلسان طلق التعبير وقرر مآثركم أي تقرير...فانفصل آثبا لتلكم البلاد حماها الله وأصحابه إليكم هذا المدرج الكريم..."¹ وإننا لنستطيع بكل يسر أن نستشف من هذا الخطاب مدى استقرار العلاقة بين الطرفين خلال هذه الفترة.

ولم تتوقف المراسلات السلمية والبعثات الدبلوماسية بين الطرفين بعد عودة حسن فزيانو لتولي حكم إيالة الجزائر بعد جعفر باشا سنة 1582 م وهو ما يظهر في رسالة السلطان السعدي إلى حاكم الجزائر الجديد والتي يبلغه فيها بمغادرة سفير الباب العالي بلاط السعديين وتوجهه إلى القسطنطينية حيث ورد فيها: "...الباشا المعظم...محمد حسن باشا حرسه الله...ومما ينمي لجنايبكم المرعي أن السفير المكرم سليمان باي الوارد على علائنا من الأبواب العثمانية قد توجه منفصلا عن حضرتنا في هذا التاريخ أما إتمام الأوبة لمقره من الديار القسطنطينية العظمى وحملناه من جملة ما تحمل أجوبة الباشا المعظم الكبير أبي الحسن علي باشا...والله يبقي علاءكم ويديم بقاءكم والسلام."² وفي هذا النص تأكيد على نوعية العلاقة الجيدة بين الطرفين، وكذا نستنتج من خلالها ازدياد البعثات والوفود الدبلوماسية والسلمية بين الباب العالي وإيالة الجزائر وبين الدولة السعدية خلال هذه الفترة.

5- أزمة الحدود سنة 1584 واستمرار سبيل السلام: وفي سنة 1584 م حدثت أزمة حدودية بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى تمثلت حيثياتها في محاولة أحمد المنصور فرض السيادة السعدية على واحات "فغيغ" جنوب غرب تلمسان، حيث قام جنود المنصور بقتل المسؤول المكلف بجمع الضرائب من منطقة مكناس، وبعد أن احتج حسن باشا فزيانو على الخطوة العدوانية التي قام بها جند أحمد المنصور برّر الأخير فعل جنده بأن الباب العالي قد تنازل له

¹رسالة من المنصور إلى محمد جعفر باشا، رسائل سعدية، المصدر السابق، ص 87، 88

²رسالة من المنصور إلى حسن فزيانو، المصدر نفسه، ص 90-92

العالي ففيها أيضا ما يدل على حرص الباب العالي على سلامة المبعوثين السعوديين ومنزلتهم القيمة لدى الدولة العثمانية والتي تعكس بالضرورة منزلة أحمد المنصور لدى الدولة العثمانية.

أما عن العلاقة السعدية المباشرة مع إيالة الجزائر فلم تتغير طبيعتها عن العلاقة مع الباب العالي، وخو مايتضح من خلال الرسالة التي بعث بها أحمد المنصور إلى حكومة الجزائر والتي راح السلطان السعدي يمدح ويثني فيها على جيش إيالة الجزائر بكل أصنافه ويبرز فيها أثر الجهاد الجزائري ضد المسيحيين والكفرة، إذ ورد فيها:

"...العصاة التي لها من علاقة المحبة لهذا الجند الرفيع..والجيش الذي له إلى اقتناص الخيرات بجوانح الرضا جنوح ونزوع، جملة الجند الجزائري، الباشا وسائر ياياباشلار¹، وبلكباشلار²، وأطنباشلار³ ويولظاش⁴، وصل الله لجميعكم أسباب السعادة، وسددكم لما تحصلون به أسباب الحسنى والزيادة، وأبقى شوكتكم على الكفرة حديدة، ووصلتكم في الجهاد متصلة جديدة، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته..."⁵، ونلاحظ هنا أن السلطان السعدي لم يكتفِ بالثناء على حاكم الجزائر أو السلطان العثماني كما في مراسلاته السابقة، وإنما خصّ في هذا الخطاب جيش إيالة الجزائر بكل أصنافه، وأبرز فيه جليا دور جيش الإيالة في نصرته الإسلام ومحاربة القوى الأوروبية، ولا يمكن لخطاب كهذا من السلطان

1الباش ياياجي و"لار" صيغة الجمع: رتبة عسكرية بدرجة عقيد، أو قائد السارية، والذي يشرف كذلك على معامل البنادق، ينظر: أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر، عدنان محمود سليمان، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول تركيا، 1988، ج2، ص394

2- بُلْكَبَاشي Bolukbasi و"لار" صيغة الجمع: رتبة عسكرية تطلق على أقدم أغوات الإنكشارية الذين يتولون قيادة سرايا الإنكشارية الخيالة، وهم من مراقبي الباشا، ينظر: صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة السعودية، 1999، ص54، أوزتونا، المرجع السابق، ج2، ص394، معاشي جميلة، الإنكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2007-2008، ص28

3لعل المقصود: أوضاباشي: وهو العريف، قائد الغرفة والمسؤول الأول عن فرقة البولداش (الجندي البسيط)، ينظر: المرجع نفسه، ص28

4يولداش (Yuldas): وتعني الجندي البسيط في صفوف الجيش الإنكشاري، ينظر: المرجع نفسه، ص28

5خطاب من المنصور إلى جيش الجزائر، كُتُون، المصدر السابق، ص92، 93

السعدي إلا أن يدل على العلاقة الجيدة والحسنة بين الطرفين خاصة وقد جاء فيه أيضا إشارة من السلطان السعدي إلى استمرار العلاقات الودية والأخوية بين الطرفين، إذ ورد فيه كذلك: "...ومن فضوله التنبيه على أن خادم جنابنا...أبو العباس أحمد الماسي حملتموه من مزيد ودادكم ما ينفض مشافهة لدينا جرابه...فقد أملى من صحائف خلوصكم ما حملتموه مسرودا، واستوفي علاؤنا الإصغاء لذلك مقصورا وممدودا..."¹، وحسب هذا النص فإن سفير أحمد المنصور الشيخ "أحمد الماسي" قد عاد إلى الجزائر حاملا معه رسائل الود من طرف حكومة الجزائر وأن السلطان السعدي قد استمع لها وفرح بما تضمنته، وقد رافق السفير المغربي إلى فاس مبعوث حكومة الجزائر "مامي رايس" الذي أغدقت عليه الهدايا من طرف السلطان السعدي قبل أن يعود إلى الجزائر في "كنف السلامة وفي عز وكرامة"² حسبما في الرسالة السعدية.

خاتمة: على خلاف ما يتم تداوله دائما في التأريخ لعلاقة إيالة الجزائر بالمغرب الأقصى على أنها كانت علاقة صراع وتصادم عسكري يمكننا القول بأن العلاقة بين الطرفين شهدت في الكثير من الفترات هدوءا واستقرارا وعرفت مساعي دبلوماسية حيثة لإقرار الصلح والسلام بين إيالة الجزائر والدولة السعدية، إذ لم يكن الخيار العسكري هو الحل الوحيد دائما لإنهاء الصراع الحاصل بين الطرفين، هذا الحل السلمي الذي تجلّى في تبادل السفارات والرسائل الدبلوماسية التي برز نشاطها منذ منتصف القرن 16م.

هذا؛ وقد ساهمت السفارات والبعثات الدبلوماسية في تخفيف الصراع بين إيالة الجزائر والدولة السعدية، إذ حرص الباب العالي وحكومته في الجزائر على اتباع سياسة دبلوماسية أمام الخصام الحاصل مع المغرب الأقصى منذ عهد محمد الشيخ السعدي، أما في عهد أحمد المنصور فقد وصلت هذه السياسة إلى ذروتها واتبعها الطرفان على حد سواء مما ساهم بشدة في تخفيف حدة الصراع بين إيالة الجزائر والمغرب السعدي في الربع الأخير من القرن السادس عشر.

1المصدر نفسه، ص95

2كنون، المصدر السابق، ص96

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

أ- الوثائق الأرشيفية (رصيد "مهمة دفترى" بالأرشيف الوطني الجزائري):

- أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 971، رمضان 972 هـ/أ.و.ج، مهمة دفترى 6، حكم 972، 3 رمضان 972 هـ
- أ.و.ج، مهمة دفترى 7، حكم 2439، 12 جمادى الأولى 976 هـ/أ.و.ج، مهمة دفترى 42، حكم 84، 989 هـ
- أ.و.ج، مهمة دفترى 42، عدد 82، 989 هـ/أ.و.ج، مهمة دفترى 42، حكم 86، 989 هـ
- أ.و.ج، مهمة دفترى 48، حكم 31، 990 هـ/أ.و.ج، مهمة دفترى 52، عدد 227، 992 هـ
- أ.و.ج، مهمة دفترى 52، عدد 82، 993 هـ

ب- المصنفات:

- الإفرائي محمد الغير الفشتالي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق أ.هوداس، مطبعة بردين، أنجي، فرنسا، 1888
- الناصري أحمد بن خالد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، د.ط، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954
- ابن عسكرك محمد الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، 1977
- دي طوريس ديبغو، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد الحجي ومحمد الأخضر، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1989
- الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريمة، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، المغرب، د.ت.
- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمذارتية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، 1994
- مجهول، رسائل سعدية، تج، عبد الله كتون، دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954
- Haedo H.D, Histoire des Rois d'Alger, Tr, H.D. De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger, 1881

المراجع:

أ- الكتب:

- إلتور سامح عزيز، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989
- أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر، عدنان محمود سليمان، ط1، مؤسسة فيصل للتمويل، إسطنبول تركيا، ج2، 1988

- بيات فاضل، لدولة العثمانية في المجال العربي (دراسة تاريخية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا، مطلع العهد العثماني-أواسط القرن 19م)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007
- بيات فاضل، البلاد العربية في الوثائق العثمانية النصف الأول من القرن 10هـ/16م، تقديم خالد أرن، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إسطنبول، تركيا، 2010
- حماش خليفة، كشاف وثائق الجزائر في الكتابات المتعلقة بالمغرب من العهد العثماني إلى العهد الراهن، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ج2، 2018
- أبو خليل شوقي، وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1988
- صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة السعودية، 1999
- عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المغرب، 2006
- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، دار البعث، قسنطينة، د.ت.
- De Grammont H.D, Histoire d'Alger Sous La Domination Turque 1515-1830, Ernest Leroux Editeur, Paris, S.D.
- De la primaudie Ilie, Documents inédits sur l'histoire de l'Occupation espagnol en Afrique 1505-1574, A. Jourdan Libraire Editeur, Alger, 1875

ب- المقالات:

- مبرك فيصل، وقوف صالح رايس في وجه التزعة التوسعية لمحمد الشيخ السعدي 1539-1557م، مجلة تاريخ المغرب العربي، جامعة الجزائر2، ع9، 2018
- هلايلي حنيفي، محاولة الجزائر العثمانية توحيد المغرب العربي، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، ع5، 2013
- Yesilmen Gokhan, Osmanli Devletin'in Fas Siyaseti Uzerine bir Degerlendirme, Medeniyet ve toplum, Cilt:2, Sayi:2, 2018

ج- الرسائل الجامعية:

- بن خروف عمار، العلاقات بين الجزائر والمغرب 1519-1659، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، سوريا، 1983
- بن قומר جلول، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا 1578-1603م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة غرداية، الجزائر، 2011
- معاشي جميلة، الإنكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2007-2008